النتاج الجديد

حتى القطـرة الاخيرة

مجموعة قصص بقلم فارس زرزور

من مطبوعات وزارة الثقافة والارشاد القومي

*

لقد كانت وزارة الثقافة والارشاد القومي في هذا العام عـلى موعد في اخراج مطبوعات مختلفة ـ ولعل اكثر عنايتهـا تتجه نحـو السلسلة القصصية التي رعتها ، واكثـرت من تبنيها .

ومن هذه السلسلة مجموعة قصصية لصاحبها الاديب فارس زرزور. تحتوي على احدى عشرة قصة ، صبت من معدن واحد ، واتجهت نحو هدف واحد . قد اختلط فيها الزمان والمكان ليعبرا عن بطولات شعبية هادئة قام بها افراد من شعبي في معركة البطولات".

واني على كرهي لكل اتجاه ـ في الادب ـ يفتعل الحوادث ، ويتكلف الافكار ، لم يسعني الا الوقوف عند هذه المجموعة باعجاب ، لان صاحبها استطاع ان ينفذ من الحيز الضيق ، الى حيز اوسـع ، تتسلسـل فيه الصور الناطقة ، ويمتد فيه الخيط الانساني ، الذي يريك الابطـال قد جادوا بانفسهم لمجرد الجود ، وقاموا ببطولتهم ، لانهم يؤمنون بالمثل الاعلى الذي ايقظ فيهم حس البطولة ..

هنالك قصة ((حتى القطرة الاخيرة)) التي سميت المجموعة باسمها ... وهي قصة جندي كلف بحماية رفاقه اثناء الانسحاب من اغارتهم على مستودع العدو .. اصيب ساعده الايسر ... فأحس ان لم يعـد يستطيع الاستفادة منه .. واعقب هذا اليقين شعور بأن كل شيء قـد فات .. ودغدغت احاسيسه اشياء سموها ... الفراغ والراحة ، والنوم الابـدي ..

وراحت عيناه تذبلان ، وتوحيان اليه بأنه اذا ضم جفنيه ، ورأى بينهما ملك سعادة ابدية .. سعادة فوق سعادة البشر .

وتمثلت له الحياة الغالية طفلا صغيرا اسمه النوم تهزه امـه هزا رفيقا ، وهو يطبق جفنيه بهدوء وهناء .

ولكنه يصحو فجأة .. لم يدرك كم مضى من الليل ، وتطلع الى السماء ، فوجد النجوم تتغامز ، واحس مرة ثانية بانه يشارك النجوم السهاد .. النجوم .. هذه المخلوقات الضئيلة في السماء ، انهـا تشتهي النوم .. لقد نقصت قليلا عن ذي قبل ، لا شك انها ذهبت لتنام ، ولاك لسانه في فمه ، فوجده يابسا كالحطبة ، ومد يده الـى مطرته فوجدها فارغة .. وتحسس السلاح .. كان باردا كالثلـج .. صامتا .. اسود .. اخرس لا ينطق .. لا بأس ، ووصلت يده الـى المخزن المملوء بالخرطوش فوق فتحة الرشيش ، كان ثابتا جاهزا .

واحس بيد ساخنة تهدهد ظهره .. ثم ..ثم ! ايها الطفل الصغير! ورأى الملازم يقلده وساما حربيا كبيرا ، بينما امه تبكي من الفرح ، واخته الصغيرة تغني اغنية حزينة ، ووجهها مطلي بطلاء اصفر ... كـل شيء اصفر .. حتى الوسام كان اصفر .. والملازم يرتدي بزة صفراء ثم رأى نفسه يأكل بطيخة خضراء ، مرة وحامضة . احس بعدهـا بالغثيان ، فاراد ان يتقيأها فلم يستطع ، واحس بالالم .. وراحـت امعاؤه تتفتت ، قطعة اثر قطعة ، فسفحت أمه على بدنه العاري سطـل ماء ساخن ، ساخن جدا ، ووقع السطل على رأسه فاحدث .. احدث انفجارا اهتزت له الارض ، وتصاعدت السنة عالية من اللهب تلاهـا انفجار ... وانفجار .

وفتح عينيه ، كانت اصبعه تضغط على الزناد ، ومن فوهـة الرشيش ينطلق انبوب طويل من النار يصل الى بناء ابيض ، ويخترق نافذتين كبيرتين الى جانب السنة اللهيب التي تغزو السماء .

وفي الساعة الثالثة من صباح السادس عشر من ايار سنة ١٩٤٨ تلقى امرا من افواج الحدود البرقية التالية :

نفذت المهمة .. الخسائر شهيد واحد .. هو هذا الجندي نفسه. والان اطلب له وساما ..

في هذه اللوحة على ايجازها صورة مكتظة بالصدق والتصـور الواقعي ، والالوان المعبرة ... فالجريح لا يمكن ان يوصف باحسن ممـا وصف في هذه اللوحة ... من ضياع ، واحساس مخدر بما حوله ، ثم يستيقظ فيه شعور الواجب . فيتحامل على نفسه ليؤدي مهمته ، لانـه يعتقـد بان حياته لم تعد ملكا له .. وانما هي ملك رفاقه الفـدائيين الذي يرتقبون ان يبدأ .. ومن خلال هذه الحياة التي انتهت بالانفجار يلوح ((وسام)) هو كل ما كوفئت به هذه الحياة .. هذه الحياة التي كافحت حتى القطرة الاخيرة ..

وفي القصة الثانية ((حفنة من تراب)) قصة رجل مهاجر يعـود الى وطنه ، ولاول مرة تراوده في حياته فكرة الوطن .. الذي تـرك فيه امه العجوز تتثاءب ، وليس له عن ابيه اية صورة حية ..

وجد قريتها هي نفسها : بضعة اكواخ طينية ، متفرقة ، متطامنة ، التراب نفسه ، والقش نفسه ، والساكنون انفسهم ... رجال ونساء واطفال وكلاب . كلهم يسيرون بكلل ، ويستلقون تحت أشعة الشمس لا شيء جديد ، ها هي عشر سنوات مضت في الخارج ، بيد انـهم هنا لا يحسون بمرور الزمن . سنة سنتان ، قرون ، كل شيء هادىء، الشمس تشرق وتغرب ، والمطر يهطل ويتوقف ، والكلاب تعوي ، واطفال يولدون ويعمون ويموتون ، خرج الانكليز ، وجاء اليهود ، والخراب هو الخراب .

سأل عن امه ، فاذا هي ميتة منذ ثلاثة اشهر ..

انه الان غريب .. غريب حتى على نفسه ، والقرية مهددة فـي كل لحظة بهجوم اليهود ..

لماذا جاء اذا ؟ هل يترك كل شيء ، وينسى كل شيء الا نفسه ؟ ولكن هذه النفس الا يجب ان تمتلىء بشيء ؟ ان تختزن ذكرى مـن الذكريات ، عاطفة من العواطف .. اشياء تسليه ، تسعده او تعذبه ، اشياء تشعره بانه انسان .

واحس ، لاول مرة ، في حياته بان نفسه عارية ، عاريه عـــى الاطلاق ، فارغة ، قاحلة جوفاء ، لا يملاها شيء ، المال ، الذهب ، الحياة المترفة ، ماذا فعلت هذه الاشياء ؟ ترى ، هل هذا هو الوطن ؟ هـــذا الحب ، هل هو حب الوطن ، حب الارض ، وحب التراب ؟

راح الرجل بين ابويه ، بين قبريهما ، يستنبت مشاعره ، ويدغدغها وينميها ، ان ذلك شيء جديد بالنسبة اليه ..

ـ هذا بيت ابوي ! هنا يسكنان ، هنا وطنهما في هذه الارض .

ومد يده الى القبر :

ـ تراب .. تراب خشن !

وغرس اصابعه في القبر ، فلذعته شوكة حادة ، واستخرج قبضـة من التراب ، وراح يعصرها عصرا شديدا حتى دميت انامله .

ـ هل لهذا التراب من رائحة ؟ ليست له رائحة معينة . غير ان فيه حياة .. حياة اناس ماتوا ، اعزاء عليه ، حياة غريبة ، لا تشبه اي حياة من الحيوات ، غير انها حياة ، كحياة الانسان، لقد بدأ يشعر بها ويحسها ، بل يعيشها باعمق جوارح كيانه كله.

ـ انه لم يحارب في حياته ، غير انه الان مكلف بالذود عن شيء ، سيدافع عن قبري والديه ، عن الارض التي تضمهما ..

ورفع عينيه ، ونظر حوله ، هل اصابه دوار ؟ ان القبور تتحـرك يبدو انها تتقدم او تتاخر ، وهذه الشواهد ؟ انها تبرز شيئا فشيئـا كانها هي جنود ينبتون من الخنادق استعدادا للهجوم ، واصاخ السمع ، ما هذا الدوي الهائل ؟

وهؤلاء بنو قومه يحملون ادوات الموت كما يحملون فؤوس القطع ، ومحاريث الفلاحة . لا بد ان لكل منهم شيئا يدافع عنه .. ارضـا بيتا ، شجرة ، قبرا .. او ذكرى من الذكريات ..

هذا المهاجر البعيد ، جذبه التراب .. تراب وطنه اليه ، وعاد رجلا واحدا من هؤلاء الرجال الذين يذودون عن ترابهم .. وبهذا الايمـان الجديد المتفتح ، طوى كل علاقة له بالمهجر الذي جاء منه .. لان روابط الوطن اقوى من كل شيء ..

ان هذه القصة وامثالها لا تجتذب القاريء ببراعة سردها فقط ، ولا بنبل غايتها .. لان الكاتب اوتي ، فوق ما اوتي من البراعة القصصية مخيلة شعرية تربط ما بين الاشياء والاحياء بخيوط دقيقة تجعل مـن هذا الواقع الواضح عالما غريبا ، ملتفا بالضباب ، والشعور الخفي.. وهذه الميزة عندي هي ابين ما يطلع عليك من خلال هذه الاقاصيص ، لان قصاصينا الذين يلتزمون الواقع يكادون ينقلونه نقلا حرفيا مشوهـا ، دون ان تكون لديهم القدرة على خلقه مرة ثانية بالالوان والاحاسيس التي تجود بها الحياة لاول مرة .

ولعل القصة التي تتبدى فيها بطولة الطبيعة هي قصة « شجرة البطم » واجدا فيها القمة التي بلغها هذا الكاتب .. وهي شجـرة تشمخ في اعالي تل العزيزيات جبارة عاتية ، منتصبة دائما ، صامتـة لا تنطق ... في يوم ما تساقطت اوراقها ـ ورقة ورقة ـ كالدموع عندما شوهت الحرب قوامها ، فثقب الرصاص صدرها ، وشقق لحاءها . اما جذورها فبقيت متشبثة بالارض ، تريد ان تحتفظ بالتراب الذي تحيا منه وتعيش فيه . والشيء الوحيد الذي يحزنها انها لا تستطيع ان تظلله.. وكان لا يزال يوجد في اعلى قمتها بعض وريقات مثقوبة تطير حولهـا العصافير ، ثم تغادرها خائبة الى شجرة اخرى لتبني عشها الاخضر.. وحين يمر الجنود من حولها .. يعتبرها بعضهم محاربا عظيما خاض معارك طويلة ، خرج منها رافع الراس ، ونقشت على صدره اوسمة النصر ، وبعضهم الاخر يتخيلها اما عجوزا فقدت اطفالها ، فرفعت اذرعها اليابسة الى السماء..

هنالك جنود حفروا اسماءهم على قشرها ، ثم عادوا يقرأون ذكرياتهم باكمام فارغة ، واتكأ عليها اخرون بأرجلهم ، ثم رجعوا يزورونها على عكاز ... وظلت هذه الشجرة تحرس الحدود .. وقد اقسمت ان تحـافظ على الارض التي نبتت فيها وعاشت بها ..

ان في هذا التصوير حياة أبعد من تمثل حياة الشجرة وحدها ، بل هو تصوير عميق اضفى الحياة على الاشياء ، لتشارك الاحياء ، وجعل من الشجرة رمزا بعيد الدلالة لهذه القوة الدافعة التي تستكن في نفوس هؤلاء المدافعين عن الحدود .

بمثل هذه الصور الدافقة ، والسرد السليم ، واللغة الصافية تطلع علينا هذه المجموعة التي تبشر لصاحبها بمستقبل رائع في مجال القصة.

حلب **خليل الهنداوي**

أمطـار

شعر : محمد سعيد الصكار

مطبعة الرابطة ـ ٤٨ صفحة من القطع الصغير

*

هذا شاعر يبرهن لنا من جديد على ان الشعراء الشباب عندمـا اتخذوا طريقة الشعر الحر للتعبير عن تجاربهم وانفعالاتهم لم يتجهـوا ذلك الاتجاه لغرض التخلص من دراسة الاوزان التقليدية او لقصـور في قابلياتهم او مواهبهم الشعرية .. اذ يحتوي هذا الديوان علـى قصائد نظمت في طريقتي الشعر الحر والشعر العمودي ، وهذا يـؤكـد من جديد على ان التجربة او المعاناة هي التي تحدد طريقة التعبير لكي يستطيع الشاعر ان يقدم لنا قصائد ناجحة لم يفكر قبل انتاجها بالبحر والقوافي التي سيستخدمها .. وانما يكتبها في لحظة شعورية هـي التي تحدد التفاعل التي سيستعملها والتي تتفاعل موسيقاها مع موضوع القصيدة .

يضم هذا الديوان ثماني عشرة قصيدة تعتبر اجود مانظمه الصكار من شعر خلال اثنتي عشرة سنة .. فقد اسقط من ديوانه قصائـد كثيرة هي دون مستوى القصائد التي يحتويها الديوان .

من اروع القصائد التي يضمها الديوان قصيدة « غرباء عندمـا نلتقي ص ٤٣ » التي نظمها الشاعر في الفترة الواقعة بين تشرين الثاني ١٩٦٠ وشباط ١٩٦٢ .. وقد يبدو هذا الامر عجيبا ، فلرب سائـل يسأل وكيف يكيف الشاعر نفسه لتجربة واحدة خلال مدة طويلة كهذه المدة ؟ انني اتصور ان الشاعر كتب جزءا من هذه القصيدة وانشغـل عن اتمامها للمهام الكثيرة الملقاة على عاتقه سواء كانت هذه المهام ادبية او دراسية او تتعلق بكسب العيش ، وبعد انتهاء فترة من الزمن مـرت بالشاعر حادثة اخرى ايقظت في اعماقه التجربة الاولى او ولدت تجربة مماثلة الامر الذي ادى به الى اكمال القصيدة .

نجد في هذه القصيدة عصارة روح الشاعر .. فقد عانى التشرد والغربة في العهود الحالكة التي مر بها الوطن الحبيب ، كما ان شاعرنا ممن يذيبون اعصابهم لتقديم الحروف الخيرة للناس ، ان كل هـــذا اضافة الى تجربة حب عنيفة هو ماترتكز عليه هذه القصيدة .. والان لنقرأ بعض مقاطعها التي تبدو فيها اللوعة مثارا للاعجاب ..

عندما أطلب من عينيك ان تستبدلا شيئا بحبي
فانا اعلم انـي
ربما أطفيء في دربي صباحـا
ربما أكسر في الغيب جناحـا
فاعذريني
لاتقولي : «خانني .. »
فالحب يدري ان قلبي
لم يخن يوما صديقا

هكذا يغني الشاعر في المقطع الاول من القصيدة وعندما يحاول ان يبرر ماقاله أنفا ... يرتفع صوته من جديد :

آه يا مبهورة العينين .. يا مرفأ قلبي
متعب ..
هل كنت يوما متعبة ؟
هل تحسست اختلاج القصبة
في أزيز الريح ؟
اني مثل تلك القصبة
متعب .. انهكني البحر واضناني انتظاري
وانا اعقد جفني على قمة صاري
حالما ...
يأكلني الشوق الى نكهة دار

ان الشاعر هنا استطاع ان يرسم لنا صورة لشخصيته ، انه انسان نبيل يتطلع نحو آفاق اوسع يريد ان يضع الشمس على جبينه ويسير في درب تتلألأ على جانبيه الحروف والخضرة .. والشاعر بعد هـذا انسان جريح لايستطيع ان يقول لحبيبته انتهينا .. وانما يعود ليقول :

فسألقاك كما يلقاك بعض الغرباء
جمل تائهة المعنى .. واشلاء تحيه
شنجتها دفقة الذكرى ..
وهزتها بقيه
من ريـاح الامس ..
ما اصعب ان ننسى رياحـه !
آه .. ماأوجع ان يوقف انسان جراحـه
آه ما أتعب ان ينسى ..
جراحـه !!

ان الشاعر الجريح يحار في جراحه فما أوجع ان يوقفها ومـا اتعب ان ينساها ؟. ومن هذا المنطلق يشعر باللوعة والغربة .

ولعلنا نستطيع ان نلمس بوضوح الاحاسيس المختلفة الصاخبة التي يزخر بها الصكار في قصيدته « بطاقة ص ٩ ».. ان هذه القصيدة كما أتصور تمثل مشردا يود ان يكتب الى ابنته .. ولكنه يتساءل قبل ذلك :

ماذا ساكتب في البطاقة ؟!
أفيستطيع الحرف .. هذا الحرف .. ان ينبيك عني ،
ان يحمل الامل المجنح .. والحنين .. والف باقة
من زهر أشواقي اليك
ان يفتح الافاق في وجهي فابصر مقلتيك
وأرى ابنتي .. بيتي .. ربيعي كله في مقلتيك !
ماذا ساكتب ؟.. ان أشرعة الحنين
تطفو على شفة البطاقة ..

ويبقى المشرد الغريب ساهما يريد ان يكتب الى ابنته حروفا ملتهبة تعبر عن مشاعره الصادقة .. حروفا تشدها الى الافكار التي شرد مـن اجلها .. ولكن الحروف تضيع في غمرة مشاعره الصاخبة فيهتف مـن الاعمـاق :

لو انني أرويك من قلبي ..
واسقيك اشتياقه
لو انني اعطيك ذوب دمي ..
وأمنحك احتراقه
لو انني أسطيع يا ظمأ البطاقة !!

ان أي نتاج أدبي كما نفهمه هو مرآة لروح الاديب .. ومن هنـا نستطيع ان نتوصل الى النزعات والنزوات والمشاعر الذاتية التي اكتنفت الصكار خلال عمره الشعري .. فالواقع ان قصائد الشاعر قبل الثـورة متفائلة تشرق بروح العزم رغم تشرده ونضاله المرير الذي يعكس جانبا منه في قصيدة « القمر ص ٢٤ » :

هاهما عامان مرا
ياصديقي ..
انا لم ابصرك يوما في طريقي
منذ ان كنا نغني للقمر
منذ ان فرقنا الخفاش تلك الامسية
حيث اغرتك عصابات التتر
وانا غيبني السجن ..
وفي صدري قمر

ان في هذه القصيدة اشراقة من العزم فالشاعر عندما غيبه السجن بقي القمر يشع في صدره .. ولعلنا نلمح التفاؤل مرة أخرى فـي قصيدة (ستكون الشمس عمودية ص ١٣) فرغم كون هذه القصيدة تمثل تجربة عنيفة يحسها الشاعر عندما يراقبه مخبر يصطاد الهمس من شفاهه .. اقول رغم ذلك كله يناجي الشاعر امه بنداء عذب مشرق :

لا تبكي يا امي
ان شمت ظلالا أربعـه
من شفتي تصطاد الهمس
تحسب خطوي
وتلاحقني حتى الرمس

واما التفاؤل فهو يتجلى في هذا المقطع :

ستكون الشمس عموديه
وتذوب ظلالي المحمومه
واسير
أسير .. بلا ظـل

ان الشمس العمودية التي يرمز اليها الشاعر هي فجر التحرر الذي يتامله ... وما ظلاله المحمومة الا تلك القيود الرعناء التي تشده الـى هوان دائم .

وهناك خمس قصائد اخرى نظمها الشاعر قبل الثورة تشرق بنفس الروح التفاؤلية وهي (موسكوفية ص ١٥) و (عصفور ص ٣٩) و(مصباح ص ٤٧) و (الجدار ص ١٨) .. واما قصيدة (لمسات ص ٣٣) فهي بلا تاريخ ولا نستطيع انستشف منها الا التهافت والخيبة .. فالشاعر يقول في مطلعهـا :

أريـدها .. أريد ان ارتمـي	في حضنها بعـد عنـاء السفر
أريد ان ابكي على صـدرها	أنشج مثل الطفل .. مثل المطر

ان كلمة (اريدها) توحي للقارىء بطلب طفولي بالغ (أريـدهـا ... أريد ان ...) والشاعر نفسه يبرهن على ذلك في قوله (انشج مثل الطفل .. مثل المطر)

وفي القصائد التي نظمها الشاعر بعد الثورة نجد تغيرا ملموسـا في شعره .. انه لا شك تقدم في مجال الشعر ، ولكن مميزات شعـره قد تغيرت وتبدل التفاؤل والاشراق بغربة وخيبة وعتمة ووحشة .. فشاعرنا بدأ يحس بهذه الاشياء تدريجيا ، ونستطيع ان نعلل ذلـك باشياء شتى منها ان الشاعر بعد ان استقر اكثر من السابق وانصرف الى ذاته احس بظمأه في جميع المجالات .. انه يبحث عن افاق اوسع.. عن محيط يسمح له بأن يعمل ما يشاء وبالتالي فهو يبحث عن مطامحه العديدة ويبكي ايامه السابقة التي قضاها في العذاب والتشرد والتطواف في المدن البعيدة .

ان القصيدة الوحيدة التي نظمها الشاعر بعد الثورة التـي تتخلص من المميزات السابقة هي قصيدة (العنوان ص ٣٦):

اني لاستعيد ساعة اللقاء
اذا كنت تسالين عـن عنواني البعيـد
وكنت أحكي لك عن صلافة القيود
في موطنـي ..
وانني ..
يا غادتي الشقراء ..
لا عنوان لي !!

ان ما نفهمه من فكرة القصيدة هي ان ذكريات الشاعر عادت بـه الى ايام التشرد حيث التقى بهذه الغادة الشقراء وحدثها طويلا عـن صلافة القيود في موطنه .. ولكن غادته طلبت عنوانه فلم يجبها الا بأن لا عنوان له .

وبعد ان عاد الشاعر الى وطنه واصبح له عنوان ثابت اراد ان يكتب لغادته فبدأ يبحث عن عنوانها ويقول :

أنا هنا اكاد احرق الورق
بنظرتي .. بحثا عن العنوان
أريد ان اهديك اشياء .. وان اقول
ما لم اقله ساعة اللقاء
أريد ان اكتب .. أن اقول ما اشاء
لانني استطيع ذاك الان
لكنما العنوان ..!!

ولعل مميزات شعر الصكار بعد الثورة تبدو في جميع القصائد الاخرى التي نظمها في الفترة المذكورة فلنقرأ المقطع التالي من قصيدة (أغنية العود الى سوزنتو ص ١١)

للمرة الالف صحبت الصوت والنبره
احسست طعم الفرح الغامض والحسره
احسست طعم النحاس
على شفاهي ..
آه يا ليمونة مره
لا تسرفي في الغناء
لا تفتحي في جبهتي حفره

ان هذا المقطع جميل وينساب انسيابا موسيقيا يتفاعل مع موضوع القصيدة ولكن تعبيره (لا تفتحي في جبهتي حفرة) بداية تعثر خفيف في المعنى والموسيقى

واذا اردنا ان نبحث عن الخيبة والحزن في هذه القصيدة لنقرأ المقطع الاتي :

أريد ان ابكي ولو مره
أن ارتمي في بركة الاحزان
اخبو نظرة .. نظره

وفي قصيدة (القصيدة الناقصة ص ٢١) نجد الوحشة والضياع والفشل :

وانا موحش وزوبعة الايام — تدمي وجهي .. وتهدم زندي
انا وحدي اهز صمت الليالي — لاهث الحس، غامض الشوق، وحدي
اتخطى دروب ليلي وارنو — فارى وجهك النبيذي عندي

ونجد الاجواء السابقة نفسها في قصيدتي (وحشة ص ٢٨) و (البحر ص ٧) .. ولعل القصيدة الاخيرة تمثل خوفا من المجهول وخيبة اشد ما تكون :

ماذا ستفعل لو تهشمت السفينة
ماذا ستفعل ؟
لو غصت مثل الطين في البحر العظيم ؟؟
ماذا ستفعل ؟!
. . . .
. . . .
سأموت من حزني عليك

بقيت في الديوان اربع قصائد .. اثنان منها يغلب عليهما طابع السرد والكلام العادي هما (طيفها ص ٤٦) و (اليها ص ٣١) والثالثة قصيدة نستطيع ان نقول بانها لاتحمل مميزات شعر الصكار بعد الثورة وهي قصيدة (الى دفتر ص ٤١) منها :

احس في صفائها رعشة — والمح الصمت على دربها
هذي الرؤى كم دغدغت قلبها — واختنقت خجلها على هدبها

واما القصيدة الرابعة وهي (وحشة ص ٢٨) سنتحدث عنها في بحثنا (الغربة والحنين في الشعر العراقي المعاصر)

الذي أرجوه للصكار في الختام ان ينفتح على تجارب جديدة ترفل بروح العزم والتفاؤل والصفاء فانه شاعر تجد الكلمة الخضراء في شعره تألقا وجمالا وروعة .

بغداد — خالد الحلي

صدر حديثا

تأملات وجودية

بقلم الدكتور

زكريا ابراهيم

- لون جديد لم يعرفه الادب العربي من قبل
- خواطر ويوميات تشتعل بالفكر والحياة وتتناول مشاكل الوجود والموت والعدم والظلام ، وتذكرنا بيوميات كيركجورد وغابرييل مارسيل .
- مذكرات حية تلوح كلمع من النجوم وسط حلكة الجفاف الاكاديمي .
- كتاب هام يعيش قضية « الفكر » وسوف يكون بدء سير في طريق جديد من طرق التعبير بالعربية

الثمن ٢٠٠ ق.ل — منشورات دار الاداب

العيب

رواية بقلم يوسف ادريس

*

مرحلة طويلة قاسية يخوضها الكاتب حتى يصل الى شيء ينتهي عنده .. فاما ان يموت ، واما ان يصل الى القمة التي يرى الناس منها ويرونه . والسمات التي تؤكد وصول الكاتب الى هذه القمة ان لم يقدر له الموت تنعكس واضحة في شيئين : .

البساطة ، وهي شيء يبلغه الكاتب بعد جهد طويل مضن يمزق خلاله الالاف والالاف من الصفحات ، ويستنفد جهدا وطاقة ويمر بتجارب كثيرة متشابكة تنصهر كلها وتأتلف حتى تصل به الى مستوى يكفل له ان يعبر عن فكرته بالطريقة التي تهيء للقاريء تذوقها واستساغتها .

والشيء الاخر – هو عدم تقيد القاريء .. عدم الزامه بالفكرة او فرضها بصورة املائية دون ابراز مبررات تقنعه حتى تصبح جزءا جديدا من افكاره هو . وهذا يلزم الكاتب ان يضع القاريء امام جميع المتناقضات التي يشملها موضوعه . ومن خلالها يستطيع ان يصور الحقيقة كما يطلبها هو .. وكما يريدها القاريء في الوقت نفسه ...

ويوسف ادريس احد هؤلاء الذين تتبعوا هذا المنهاج ووصلوا تلك القمة . ونستطيع ان نلمح ذلك واضحا في اعماله ، من « جمهورية فرحات » حتى « العيب » .. فالقاريء يرى نفسه في «جمهورية فرحات» امام الوان متعددة من المتناقضات والثغرات التي يوجدها المجتمع في حياة الانسان ، متمثلة في «فرحات» ذلك الصول المجوز الذي وضع في مكان بحكم الوظيفة ليحل مشاكل الناس ويحافظ على امنهم وسلامتهم بينما يحس في اعماقه حاجته الكبيرة لمن يحل له مشاكله ويحافظ عليه ويضمن له السلامة ولو على الاقل من « معاون البوليس » ... ولا بد من ان تحدث هوة نتجه لذلك في اعماق الانسان .. ثم الهوة الثانية بينه وبين المجتمع . ولعل ذلك منشأ الفجوة الواسعة بين الشعب والبوليس في جمهورية فرحات .. وتحقيق البطل .. تماما مثلما حدث في « اللحظة الحرجة » التي يتمثل فيها التناقض الهائل بين « سعد » ذلك الشاب الجامعي وقائد فرقة الفدائيين بالجامعة وفي الوقت الذي لا يكف فيه عن ترديد الشعارات « والجعجعة » والهتافات، يتملكه في قراره الخوف والفزع من ملاقاة اللحظة الحرجة بينما يواجهها اخواه العامل الفطري البسيط الصامت بثبات وثقة حقق من ورائها نصرا كبيرا .. وهكذا ايضا سقط سعد او البطل .. مثلما سقط فرحات تماما ..

ولكن يوسف ادريس في كل مرة كان يأخذه الاشفاق من اخفاق ابطال قصصه وموتهم فيبعثهم من جديد في صورة او في اخرى . فنجد ان فرحات لكي يتفادى « الهوة » ولكي يهرب من واقعه الذي خلقها له ، يبني جمهوريته التي يرى فيها اماله واحلامه وراحته ومثله . وهذا البعث الوهمي لا يجدي في قليل او كثير . ففرحات الذي يحلم وان كانت احلامه في حد ذاتها افكارا لها نتيجتها الا انه لم يتحرك خطوة واحدة ليحقق شيئا من ذلك . وهذا يعني انه بعث لكي لا يموت .. اما ان يفعل شيئا ... فلا .

وفي اللحظة الحرجة بعد ان أخفق البطل وسقط دون ان يحقق شيئا من دوره نجده يبعث من جديد ، عندما تدفعه امه ليأخذ بثأر ابيه من الانجليز ويحمل السلاح ليخوض المعركة .. واننا لا نستطيع ان نتصور كيف يتحرك شاب جامعي مثقف ليحقق واجبه نتيجة لكلمات امه وليس تلبية لنداء ضميره ...

وهنا رأى الكثير من النقاد ومن بينهم الدكتور « لويس عوض » ان بعث البطل في القصة من بعد سقوطه خاصة لو كان موضوعها من بين الموضوعات التي تتعلق بالوطنية او الدفاع عن الشرف او ما شابه ذلك هو بعث خاطيء ، لا يجب ان يتناوله قلم الكاتب بل يجب ان يسقط البطل للابد حتى يشعر القاريء بانه « كافر » وان السقوط هو الشيء الطبيعي والنتيجة المؤكدة له .. ويبدو ان يوسف ادريس قد آمن بذلك .. واتخذ من سقوط البطل للابد بعثا جديدا للقاريء . وهذا ما فعله في قصة « العيب » وهي التي جسم فيها المتناقضات بشكل يجعلك تتخذ موقفا معينا من كل شخصية من شخصيات القصة . في الوقت الذي لا يسلبك فيه حرارة الانفعال . فعندما « ينحاز » القاريء لشخصية معينة يتأثر بها .. ويشفق عليها .. ويتحمس لها .. ويعيش آمالها وآلامها .. وربما يردد هتافاتها .. يجد نفسه وبنفس الانفعال يملك طاقة هائلة من الشعور بالاحتقار او النقد ، او الثورة على الشخصيات الاخرى .. اي ان الجانبين يسيران معا .. بنفس القوة . ونفس المشاعر والاحاسيس .. ليتجسم الجانب الخير ، وينسجم ايضا الجانب الشرير او السيء في المواقف الانسانية ، أي أن القاريء يعيش الحالتين معا بما يشتملان عليه من رضاء .. وسخط ... وقلق .. وراحة ، وثورة ربما تقوده لان يحدد بنفسه معالم فكرته .

فالقصة تبدأ بتعيين « سناء » وخمسة من زميلاتها في احدى المصالح الحكومية التي لم تطؤها اقدام « فتاة » من قبل .. وكانت وقفا على الرجال ... والرجال فقط لهم اسرارهم وحياتهم وعملهم .. ومثلما ازدحمت المصلحة يوم وفاة « سعد زغلول » او يوم طرد الملك .. ازدحمت بنفس الطريقة والاهمية يوم وصول «الفتيات».

ودخول هذا العنصر الجديد الغريب « المتطفل » على حياة الرجال في المصلحة . كان له وقعه السيء في نفوسهم... فهم ليسوا رجالا اولا حتى يكون الامر عاديا حتى من الناحية الشكلية .. ومن جهة أخرى فالرجال لهم « قانونهم » الازلي الذي اتفقوا عليه فيما بينهم وتوارثوه جيلا اثر جيل . ولهم ايضا منطقهم الذي اصطنعوه ويسمونه « اكل العيش » والذي لا يمكن لاي فتاة ان تفهمه .. ولذلك تنبأ الجميع لهم بالفشل ... سواء في العمل .. او في « اكل العيش » واستحالة بقائهم في هذه المصلحة .. تماما كما لا تستطيع ان تتصور ان توجد فتاة او سيدة في جناح الملابس الداخلية الخاصة بالرجال مثلا .. ومن هذه البداية ، يجد القاريء نفسه امام شيئين ... الوافد الجديد .. ذلك السر الذي لم تنكشف اغواره بعد . وان كانوا قد تنبأوا جميعا لهم بالفشل .. والشيء القديم بعالمه المغلق واسراره ومثله.. التي لم يكن يرغب احد منهم الا ان تبقى على ما هي عليه من كتمان حتى الى ما بعد الابد .. وعندما تبدأ ساعات العمل ... ولا يبدأ العمل .. وتجد سناء نفسها في مكتب « التصاريح » وسط اربعة من الرجال وجدوا انفسهم غير قادرين على التحدث عبر المكاتب كما اعتادوا . والقلق والوجوم الذي يلفهم جميعا ... وتمنوا لو عادوا كما كانوا اربعة .. اربعة رجال لا سناء بينهم .. هكذا دون الافصاح عن سبب ، ودون الافصاح عن لونهم .. فلا شك ان لهم لونا خاصا غير سائر الناس .. لونا خاصا بهم دون سواهم . ربما لون محمد الجندي زميلهم . تلك الشخصية « اللزجة .. الزيتية التي تتمثل فيها السوقية في اعلى مراحلها .. مخلوق ، كاذب ، مستهتر يملك زوجات ثلاثا .. ورصيدا من الاولاد لا بأس به..ولا مانع عنده من ان يضيف رابعة او خامسة ورصيدا من الاولاد اكبر .. وهم جميعا بلا استثناء يشتركون في هذه الصفات ويتقاسمونها وان تفاوتت النسب .. ويقف الجندي كنموذج للسوقية وجها لوجه امام سناء وهي الانسانة البسيطة الفطرية والتي كانت الوظيفة هي اولى تجاربها والتي تحمل عبء اسرتها ونفقات أخيها الاصغر الذي يتعلم في احدى المدارس .. اي ان دورها هنا لا يختلف عن دور اي رجل صاحب متاعب وهموم ويفكر كي يعيش .. ولا يمكن ان تلتقي السوقية في نقطة واحدة مع اخلاص الانسان للناس ولنفسه .. وكان لا بد من ان تصطدم المثل التي تحملها سناء .. مع الحقارة التي يحملها الجندي.. وتزداد ازمة سناء من تصرفات الجندي وكلماته التي يتفوه بها ونظراته التي تلتهم وبشراهة كل شيء فيها ... المغازلات العلنية السمجة الفاضحة ، وتجد نفسها امام كل هذا وكأن شيئا يلجم لسانها وحواسها وعقلها من ان تثور .. وتجد ان الامر قد اضحى اكبر من تقصه على مسامع امها .. وتعيش بالدموع والقلق والضيق . فمسؤوليات الاسرة وتربية اخيها

.. تدفع نظيرها راحتها وآمالها ودموعها .. ولعل أهم ما يزيد قلق الانسان هو ان لا يجد من يفرغ نفسه فيه ..

وكان لا بد من ان تبرز علامة استفهام كبيرة .. لماذا ؟... هذا الوجوم الذي علا سحنات الزملاء الاربعة ، والقلق الذي يخفي وراءه شيئا يخشون افتضاحه .. وعلامات استفهام اخرى لاسئلة كثيرة ، تدور وتدور ... وتظل مغلقة لفترة ثم لا تلبث ان تنكشف ولا تعود سرا مقدسا من اسرار المصلحة . فبدأت « تعلم من بيده الحل والربط ، ومن بيده النقل والانتداب والعلاوة ، ومن الذي يقرر البدل والاوفرتايم ومن باستطاعته الدس لدى المدير » اما التيار الحقيقي الجارف في قلب المصلحة والذي يحرك الامور ويوجهها « فقد كان يقوم على اناس تجد منهم سكرتير المدير مثلا او موظفا في قسم المستخدمين . واخر عجوز في مكتب المراقب العام قربت احالته على المعاش مع كل ابتساماتهم المؤدبة » وهذه الفئة التي تحمي الجندي عندما يخطيء . فعندما انفجر ضيقها في شكوى تقدمت بها للمدير لم يفعل اكثر من ان يتعهد له الجندي بعدم التعرض لها مرة ثانية .. وهذا يكفي ..

لكنها وجدت الدواء اخيرا .. وهو الاهمال ... « لكأنما مات الجندي او ما ولد قط » .. وماتت مشكلتها الاولى بالنسبة للعمل لمدة مؤقتة . لتتجسم المشكلة الاخرى ، وهي مصروفات اخيها الذي اصبح حرمانه من الامتحان امرا لا مفر منه . ويعلم الزملاء بالمكتب هذه الحقيقة وربما ارتاحوا لها فان ذلك يعني انها في ضيق مادي . وبذلك يكون من السهل ضمها بحكم قانونهم الى « فرقتهم » حيث « اكل العيش » وبقي ان يعرض عليها الامر بعد ان وثقوا من قبوله . وبقي ان يرسو الاختيار على من يقوم بعملية عرض الصفقة ، واخلوا المكتب للجندي لينفرد بسناء « وعبارة » « بك » ذلك الزبون او العميل الذي تكون معه ومع امثاله دائما مثل هذه الصفقات .. وان كانت الصفقة الجديدة التي يود ان يكسبوها هذه المرة تختلف عن سابقاتها .. فليست « النقود » هذه المرة هي مرادهم .. بل سناء .. يكسبونها الى جانبهم حتى تصير منهم وحتى لا تكون نشازا يقلقهم ويهددهم ويخرس اصواتهم...

وعاشت سناء هذه اللحظات على اعصابها .. فلم ينقذها تظاهرها بالعمل وانهماكها فيه من ان تتفادى سماع الحديث بين الجندي و « الزبون » في الوقت الذي وجدت نفسها فيه عاجزة عن مغادرة المكان ... وانحصرت قرارتها في ان تسمع حديث الجندي الذي يؤكد فيه ان الخمسين جنيها التي يدفعها « الزبون » نظير استخراج التصريح . انما تقتسم بينهم جميعا .. حتى سناء لها نصيبها .

وهنا تكتشف المسكينة انها غارقة الى قمة رأسها في هوة كأنما حفرت داخلها في لمح البصر ، ومضت بسرعة مجنونة تتسع وتعمق وتحتويها .. وارتطمت انفعالاتها المتوقدة مع عزيمتها الضعيفة ... ربما لتتزاحم ما تريد قوله . ذلك الازدحام الخانق من الفاظ السباب ... التي تحفظها والتي سمعتها وتحرجت طول حياتها عن ذكرها . وارادت لحظتها بمثل ما لم ترد به اي شيء خلال عمرها كله ان تقولها وترددها.. مثنى .. وثلاث .. ورباع ، وبينما انطلقت الثورة في داخلها ظل خارجها مشلولا تماما . ولم يكن غير الدموع التي انفجرت فجأة .. دافقة غزيرة وتحت ضغط كالاناء المملوء عندما يصيبه ثقب .. واحتكمت حلقات الازمة وكثرت الاقتراحات ، هل يبادرون هم بان يبلغوا عنها على انها هي المرتشية ؟؟ ام .. ماذا .. ماذا ، ولم يكن هناك خيرا من ان يستكشفوا اعماقها ونواياها تجاههم اولا بعد ان هزتهم صدمة الفشل في ضمها اليهم . ووقف الباشكاتب وهو رئيس المكتب بما فيه الجندي وسناء .. وتحدث بلهجة ابوية مصطنعة ليطيب خاطرها ان كانت قد احرجت من تصرفات الجندي .. في الوقت الذي يشرح لها فيه حياته وظروفه وهمومه .. فلعل .. وعسى !! فتحدث عن الماهية التي لا تتعدى تسعة عشر جنيها ، بينما مصاريفه لا تقل عن الخمسين .. فالاولاد تتعلم في الجامعات والمعاهد والمدارس الثانوية ، وهم ايضا يأكلون .. ثم الايجار والدواء والحياة .. و .. الخ

وعلى الرغم من ان ظروف سناء تكاد تفوق ذلك في حدتها وقسوتها التي بلغت حد العجز عن دفع مصروفات اخيها الصغير الذي لا يتعلم في جامعة او معهد او حتى مدرسة ثانوية .. على الرغم من ذلك لم تقبل قط واحدة منهم .. ان تكون مرتشية .. ويخيب امل الباشكاتب من جديد ... لكنهما ينتهيان الى حل وسط ، وهو ان يسير كل منهم في طريقه الخاص .. فليسيروا هم في طريقهم .. اما هي فلن تسير معهم ولن تعترض سيرهم .. واحسوا بالذنب !!

والمذنب لا يحسد البريء .. لكنه يكرهه ويحس به كأنه ضميره .. وكان الضمير هو الجزء البريء في قلب المذنب . وسناء ذلك الجزء .. ذلك الركن الخامس البريء في المكتب . وكان لا بد ان تحدث ارتباكات في سير العمل .. عملها الخاص وليس العمل الطبيعي واخذت الاتفاقات تعقد سرا مع « الزبون » .. وكل يحاول ان يقبض الثمن بعيدا عن الركن الخامس .. مهما طال وقت التجربة فلا بد من ان تكون لها نتيجة .. وبقى ان يأتي ذلك اليوم الذي ترى فيه .. حتى وافتها فرصة لقاء زميلاتها من المكاتب الاخرى في احدى الحفلات التي اقيمت لاحياء يوم مولد زميلة .. وبدأت علامات الاستفهام تتقهقر ، وتتلاشى ، وتذوب. فان ما يحدث في مكتب التصاريح يحدث في كافة المكاتب الاخرى .. وانما الجندي صورة منسوخة وعلى شاكلتها كل الموظفين .. ونفس الاسلوب في محاولة ضم باقي الزميلات .. لكنه نجح في المكاتب الاخرى. عندما ابتلع « نجاة » وضاعت .. ربما في ازدحام خانق مثل الذي تعرضت له سناء .. واحسوا بالخسارة ... فلقد نجح عالم الرجال والاخلاق واكل العيش في ان يبتلع زميله منهم ... وذابت .. ذابت.. ذابت .. ومرت ايام سناء بسيطة مثلها .. محدودة حتى في عواطفها كانت بعيدة عما هو « عيب » فلم يجرها ارتطام حياتها بالواقع الى الاغراق او نبذ القيم . ولكن الزمن ليس شيئا منفصلا عن حياة الانسان فالزمن بمثابة شيء يمر حاملا معه اشياء تترك اثرها في الانسان نتوءا هنا.. او اثرا لجرح هناك،فدار رأس سناء الصغير باحلام بعيدة.. حياة الثروة والغنى والطموح ، احلام تتغير هي الاخرى وتتجدد .. تماما مثلما تتغير الايام .. وماذا يقابل هذه الاحلام .؟؟ الواقع الذي ترتطم به ... ويحطمها .. ويحيلها الى رماد .. مصاريف اخيها المطلوبة في الصباح ، والتي لم تجد اي منفذ تحصل عليها منه ... ولن يفتح السقف في الليل وتحدث معجزة الاله وتتساقط النقود .. لن تحدث المعجزة .. لماذا .. لا شك ان المعجزات يصنعها الانسان ولا يصنعها الاله ..فالجندي والباشكاتب وغيرهم .. يصنعون المعجزات بايديهم ويربون اولادهم في المدارس والجامعات والمعاهد ..بينما هي تعجز ان تجد مصروفات ولد واحد ... لماذا لا تصنع هي المعجزة ؟ .. ان ثمنها بسيط ... ! ! فلقد حافظت على نفسها حتى تظل صفحة ناصعة البياض .. بعيدة عن النفاق والمواراة واللصوصية ... ومن اجل ذلك ضاع اخوها . نعم من اجل ذلك . وتساءلت . هل هي في ذلك انانية .. احتفظت بكل ذلك لنفسها لكي يضيع اخوها .. ؟ ؟ انه تماما كالنبات ، لا يهمه سوى مطلبه من القذار لا يهمه ابدا نوع المصدر ، ترى هل يغفر لها الان او حينما يكبر ، ان الجندي والباشكاتب وكلهم قبلوا ان يلوثوا انفسهم من اجل الجيش الجرار الذي اوجدوه على سطح الارض ، انهم لانظف الف مرة منها ، وتنكرت لكل مواقفها السابقة وربما بصقت عليها وبدأت تقدر افكارها الجديدة وتحترمها وبذلك اصبحت لقمة سائغة امام الجندي والزملاء بالمكتب ، وحان الوقت لكي تصبح مثل نجاة ومثل الجندي .. ومثل كل الرجال في المصلحة .. فقد اتى الزبون ليستخرج تصريحا والمكتب خال الا من سناء.. وقامت سناء بالمهمة التي كان يقوم بها الجندي تماما في كل شيء .. حتى في رزمة الاوراق فئة الخمسة جنيهات التي دست في مكتبها .. ولم يحدث شيء اكثر من ان القلم اهتز في يدها بعض الوقت .. ثم واصل سيره .. وتوقفت عيناها بعض الوقت على الرزمة المكومة في الدرج ، ثم واصلت عملها ، ثم اكتشفت ان ذلك يعلمه الجميع وترتيبا منهم .. فقد حمدوا الله على انها قبلت « الرشوة » واصبحت تماما مثلهم ، لم تعد شيئا خطيرا يتهددهم .. ويبتسم الجندي ...

ويسألها ان تحدد مكان اللقاء ، وتنتهي القصة .

ويبقى القارىء في حالة انفعال وثورة ، بعد ان وضعه يوسف ادريس امام معالم الصراع الانساني متجسمة في شيئين : اولهما ذلك الصراع العام الدائم دوام الانسانية .. ذلك الصراع القائم بين الماديات .. والقيم والذي تمثل في الجندي وتصرفاته من ناحية وسناء ومواقفها من ناحية اخرى .

والنوع الاخر من الصراع .. هو ما يكون بين الانسان وذاته .. او بين الانسان ونفسه في مواجهة موقف معين لاسيما تلك التي ترتبط بحياة الانسان وافكاره ومبادئه . وقد تمثل ذلك في صراع سناء داخل نفسها .. والتيارات التي تنازعتها وانتهت بها اخيرا للسقوط .

ولقد كان الصراع بين الماديات والقيم في هذه القصة صراعا بين ميداين ، لكل منهما قواعده وجنوده والمتحمسين للدفاع عنه ووجهات النظر التي تبرر وجوده واستطاع يوسف ادريس ان يخلق هذه الصورة ويجسدها ويرجعها المرجع الطبقي . بمعنى انها ليست تصرفات فردية، حدثت عفوا او نتيجة لظروف ومواقف طارئة .. بل رتبت على اساس مدروس لا يمكن ان يقبل تحويلا او تبديلا . ولذلك فهو لم يتكلم عن حياة الطبقة « السوقية » من الناس والا لاصبح الامر في صورة « شكوى » او « مظلمة » رفعها الكاتب ضد فئة لا ترضيه .. وفي الوقت نفسه لم يكتف بان يزيح عنها الستار حتى تتضح وتفضح امام القاريء .. بل رأى ان يغوص الى اعماقها ليكشف لنا الجانب الاخر الذي يحرك هذه الطبقة ويدفعها وينظمها على هذا النحو . وعندما فعل يوسف ادريس ذلك لم يتدخل هو او يفرض نفسه على القارىء . او بمعنى اخر لم يبد رأيا في السوقية بل وضعها امام القاريء بكل ما فيها من حقارة وشذوذ وكذب تماما مثلما كان يفعل « تشيكوف » عندما يتناول هذه الطبقة في قصصه ، فيكتفي بان يصورها واضعا امامنا لوحة كبيرة تتناول الجزئيات والمفارقات والخطوط التي تحدد معالم الانسان المزيف .. ويترك للقارىء وحده مهمة الحكم وفرض الفروض وتقرير النتائج ..

ولذلك كانت « العيب » خالية من الشعارات في نفس الوقت الذي ازدحمت فيه بالانفعالات حتى مبادىء الاشخاص وقيمهم مهما كانت حقيرة او قيمة ، لم تحس فيها صرخة الشعار او الهتاف . فالذي يسمع محمد الجندي وهو يردد « مأثورته » التي يعتبرها خالدة ابدا وهي ان الفلوس Is the Master Key اي انها مفتاح كل شيء .. السعادة ، والدنيا ، وقلوب الحالمين والمحتاجين ايضا ، لا يشعر انها منفعلة انفعالا غوغائيا او انفعالا هاتفا ، بل يجد نفسه امام فكرة نبتت من بين افكار انسان تعيس على استعداد لان يضحي بكل شيء في سبيل المادة التي يعتبرها كل شيء.. وهذه العبارة يضعها يوسف ادريس كعنوان لطبقة كاملة ولعله بذلك يحدد الهدف فهو مبدأها الذي تدافع عنه وتساندة وتحاول الترويج له بكل وسيلة حتى ولو كان ذلك على حساب راحة الغير او مستقبله او حياته .. فلا يهم الجندي وطائفته مثلا ان يلصق بسناء اتهام « الرشوة » في حالة افتضاح امرهم ... ولا مانع عندهم من ان يلصقوا بها كل حقارتهم وكل سرقاتهم على انها شيء منبوذ لديهم ولا يقبلونه ، لان « الانانية » التي ترتكز عليها حياة هؤلاء لا يمكن ان ترسم للانسان غير ذاته .. وذاته فقط. وبذلك فانها شوكة بعيدة الاغوار في حلق كل انسان مخلص .. او انسان له مثله وقيمه التي تتعارض مع تطفلها وزيفها .. تعذبه ... وتقلقه ، ويصرخ باعلى صوته تماما مثلما صرخت سناء من تصرفات الجندي ..لكن صرخاتها لم يكن ليسمعها احد .. فان ضوضاء السوقية في كل مكان يطغى على جميع الاصوات وجميع الانات ويحجب حتى نداء الاستغاثة وتحمل غشاءها الضبابي ، ومن خلفه يموت الانسان دون ان يشعر به احد .. ولا حتى المسؤولون . فلقد رأينا سناء تشكو وتشكو ويسمع المسؤولون .. وتنتهي بلا شيء .

وكان يوسف ادريس عميقا في نظرته حيال المجتمع ليكشف لنا ويختار هذه الفئة التي تنخر في عظام الموظفين في المصالح الحكومية.. بل يحترمون كل الانظمة وخطرهم ليس قاصرا على مكان .. فهم في المصالح الحكومية .. بيدهم النقل والانتداب وتقرير الاوفرتايم والرفت ايضا .. وهذا النموذج موجود بالفعل للان في الكثير من المصالح الحكومية، والاهم من ذلك انها بينما تعبث هذا العبث وتهدد حياة الناس لا يوجد وراءها من يحاسبها او يقلم اظفارها .. فان محمد الجندي .. دائم الغياب .. ولا يعمل بمليم .. ولص ، ويتطفل على حياة الناس .. ويعيش ...

وحتى المبررات التي تسوقها هذه الطبقة مبررات واهية زائفة مثلها تماما .. فاننا نرى الباشكاتب يلوم ابنه الاصغر عندما سرق « اصبع طباشير » من مدرس الرسم بينما لا يلوم نفسه عندما يسرق هو ما يكفي لان يفتح مصنعا للطباشير .. وهناك الموظف الذي يصلي ، ويصوم ، ويسرق .. وعندما تسأله يجيبك .. يا ولد العم ، هادي نقره ، وهادي نقره اي ان الصلاة والصوم شيء والسرقة شيء اخر .. لا علاقة ولا رابط .. ولا حرام ، ولا يمكن ان يتعارضا على الاطلاق ، بل الادهى من ذلك انه عندما تعقد صفقة يقرأون الفاتحة !!

امام هذه الطبقة بهذا الاسلوب تقف « سناء » البنت .. الساذجة الفطرية .. ولعل يوسف ادريس قد اختار البطل الذي يقف امام هذا التيار فتاة ولم يختر رجلا .. ربما ليجسد معالم الصراع ويوضحها .. فلو كان البطل رجلا لوجده القاريء ندا لمواجهة هذه المواقف والاحتمالات التي تعرضت لها سناء .. ويشعر بان موقف البطل موقف طبيعي جدا لا يمكن ان يفعل غيره ، ويعني ايضا بهذا العنصر « النسائي » ان يكون رمزا لشيء جديد في حياة المصلحة ونظمها ورجالها ، ثم يحدد معالم هذا الجنس النسائي في سناء التي بلغت بها البساطة حدا بعيدا . ولم تكن الوظيفة الا لتحل محل المدرسة فقط . مكان تستنفد فيه طاقتها من اجل شيء معين ..

وبموقف سناء الصلب الجامد في وجه تيار السوقية يؤكد به يوسف ادريس انتصار الانسان والقيم عى المادة في اعظم صوره وبشكل يجعل القاريء نفسه يتخذ موقفا معينا ... فهو يعطف على سناء . ويتحمس لها ويتألم من اجلها .. ولعله بكى عندما سقطت ، فسقوطها يعني سقوط مثل الانسان وقيمه في الوقت الذي لا يمكن ان يعطف على الجندي او طبقته مهما كانت الظروف التي يمر بها ..

ولكن يوسف ادريس وقد نجح في كل هذا .. واستطاع ان يجعل القاريء احد اطراف النزاع بين الماديات والقيم .. فانه لم يذكر لنا من قريب او بعيد ان هذه الطبقة السوقية التي يتألم منها المجتمع .. يخلقها المجتمع بانظمته الفاسدة ، فالانسان يولد نقيا تماما في نقاء سناء ثم لا يلبث ان يتلوث تحت ضغط ظروف معينة والخالق لهذه الظروف اشياء كثيرة وهكذا فان السوقية تخلق السوقية !! ولكن من الذي يخلق السوقية ؟؟ هذا هو السؤال الذي لم يجب عليه يوسف ادريس ... وماتت البطلة دون ان تقوله ..

القاهرة — كرم شلبي

مكتبة روكسي

اطلبوا منها الاداب كل اول شهر

مع منشورات دار الاداب

اول طريق الشام

صاحبها : حسن شعيب